الأخبار

حكي سرفيسات | تاريخ السمك

مجتمع | ضحى شمس| الأربعاء ٢٠ نيسان ٢٠١١

الخيمة التي لمحتها من شباك الفان الرقم ٤، بين شجر الوسط الأجنبي أمام مبنى الإسكوا، بدت من هنا، لدى مرورنا الخاطف فوق الجسر، فارغة. من هذا البعد، لم يمكنني أن أميّز إلا صورة أوديت سالم الكبيرة، والدة المخطوفين كريستين وجورج، التي رحلت وهي تنتظر خبراً عنهما، إضافة الى لافتة كبيرة كتب عليها «ماما ما رجعوا»، وهي العبارة التي اختارها أهالي المخطوفين منذ حوالى سنتين، في سعيهم المضني والمستمر لإيجاد طريقة جديدة تبقي شعلة الاهتمام العام بقضيتهم موقدة في ضمير اللبنانيين، وربما حتى في قلوبهم هم. قلوب وأجساد موجوعة من استمرار الوجع، يومياً، منذ عقود وعقود. وجع موازٍ لاستمرار جريمة الخطف، بالتمنع عن إعلان مصائرهم. إن ماتوا، فأين؟ ومن؟ وإن لم يموتوا، فأين ومن؟ هذا كل ما يريدون.

قلبك أنت الآخر موجوع وأنت تواكبهم منذ سنوات وسنوات. تخرجك من يأسك أخبار ترد من هنا أو هناك عن عدالة تحققت في بلدان أخرى. العدالة الحقيقية، كما في البوسنة مثلاً. من مصر تأتي الأخبار المفرحة هذه الأيام: محاكمة مبارك وأولاده ومصادرة أملاكه. ما أحلى هذه السابقة: أول رئيس عربي يقاضى أمام محاكم بلاده، ويزج بسلطة الشعب الحقيقية مع أزلامه في السجن. لا أمم متّحدة. لا حسابات دول. فقط عدالة الرأي العام. ليتنا قمنا بذلك بعد الحرب الأهلية. تتذكر أيضاً ما قرأته منذ أيام عن إلغاء مجلس الشيوخ في الأوروغواي «قانون العفو» أو «قانون مرور الزمن» الذي كان يشمل الجرائم التي ارتكبت خلال الديكتاتورية العسكرية بين عامي ١٩٧٣ و١٩٨٥. تبتسم للوعود الآتية من أميركا اللاتينية. محاكمة المجرمين ممكنة حتى بعد مرور الزمن. الزمن لا يمر، وإن بدا أنه يفعل. أهالي المخطوفين يعرفون هذا جيداً. قلبهم المتعب من انتظار خبر أو عدالة يعرف ذلك جيداً. الزمن لا يمر.

«ماما ما رجعوا». تقول اللافتة التي حاول فيها الأهالي الطيبون تقليد الحملات الإعلانية بإيجاد عبارة تجذب الانتباه. تفكر بأصحابك بينهم، أولئك الآتين من الأطراف. فلاحون ومزارعون وصغار كسبة، أمهات عاديات، مجبرات فجأة على تعلم «الماركتينغ» ليبقوا اهتمام الرأي العام بقضيتهم يقظاً. فنحن، ننسى بسهولة كما تعلمون. ننسى يومياً. حاضرنا لا يخالطه أي ماضٍ أو مستقبل. صاف و«طازج» لا يبيت فيه شيء في ذاكرتنا. هل لأن الذاكرة الجماعية ممنوعة علينا؟ أو ربما لأنه لا شيء نتفق على روايته في تاريخنا لنتذكره؟

على الشاشة، تضحك لمشهد فتاة بالكاد خرجت من المراهقة وهي «تتناقش» مع شاب في أواسط عشرينياته عن النظام الطائفي والعلمانية. البنت «معصّبة». والشاب أيضاً، لكنه «يتعالى على الجراح» ويضبط أعصابه. تخبيص أيديولوجي ومصطلحاتي. تحسّ أنك رأيت هذا المشهد في مكان ما قبل اليوم. تقول في نفسك إن «الإيماء» أصبح مدرسة أيديولوجية. تقليد

الآخرين. نكاد نكون تايوان الثورة المصرية. الشاب والفتاة على التلفزيون الطائفي الذي يملكه زعيم طائفي خصص برنامجاً لإلغاء الطائفية يتكلمان في الطائفية كأنهما اكتشفا للتو «هذا المرض». ينددان بها بحرارة وصدق، محاولين أن يفسرا، لنا، أضرارها علينا. كأن لا أحد اكتشف هذا البارود قبلهما. كأن المعركة ضد النظام الطائفي «فقست بهالجرد». لم تأت من أي تراكم حصل قبلهما. كيف سيتضامن هذان مع المخطوفين؟ تتذكر الخيمة الفارغة. التظاهرات القليلة العدد. أهالي المخطوفين ليسوا «شلخات» لنتضامن معهم. قتلتنا «مقاييس» التلفزيون، وقعنا في حبائلها دون انتباه. تسمّم بطيء. كيف تشرح لهذين أن إلغاء النظام الطائفي مرتبط بالاستعداد لتصفية إرث الحرب الأهلية. بمحاكمة المجرمين وإعلان مصير المخطوفين وإنشاء بنك حمض نووي لأهالي الضحايا بانتظار فتح المقابر الجماعية وتحديد الهويات ليجد التائهون مكاناً يرقدون ويزارون فيه. وإنه كان يمكن الثورةَ أن تنطلق من هناك، قبل أي كان؟

ظهر الأربعاء، الخيمة كانت فارغة. وظهر الخميس أيضاً في ١٣ نيسان، ذكرى الحرب الأهلية. بدت الخيمة من بعيد كما تبدو البيوت في القرى التي نتركها في الشتاء لنعود إليها في الربيع. كأن جدرانها ابيضّت من البرد والثلج والانتظار، عارية كالأشجار التي تحيط بها في حديقة جبران، الخالية من الأوراق وذات الأزهار الضخمة التي تشير الى أصولها الاستوائية البعيدة. الشمس ساطعة ونسمة باردة تلسع من يقف قليلاً في الظل. دققت البصر حين كنت عائدة مساء من الطريق ذاته. لا أحد. بال الناس في مكان آخر. اليوم يوم ثورات شعبية. ربما لهذا بالتحديد، الخيمة فارغة من المتضامنين. أما الأهالي فسينتظرون العدالة من باب سقوط النظام. نظام يؤمن الاستمرار للمجرمين المجددين لبكارتهم السياسية بالعفو العام. حينها لكل حادث حديث. أخبار مصر المفرحة تقول ذلك. أخبار الأوروغواي تقول ذلك. ومن يقرأ التاريخ، تاريخه على الأقل، يعلم بالتأكيد ذلك.